الطبيعة الصامتة في شعرِ أبي الفتحِ البُستيّ (ت ٤٠٠هـ)

أ . د . علي عبد الحسين جبير

جامعة القادسية / كلية التربية/ قسم اللغة العربية

ali.jbear@qu.edu.iq

الملخص :

تعدُّ ظاهرة استدعاء الطبيعة الصامتة ومنها الفلك والأجرام السماويَّة في شعرِ أبي الفتح البُستي من أهم المميزات والخصائص الأُسلوبية التي تميَّزَ بها هذا الشاعر العباسي ، إذْ تلوَّنت أشعارهُ بعشرات الألفاظ الدَّالة على الفلك والنُّجوم ، إذْ مزج الشاعرُ من خلالها بين مكونات الطبيعة من جهةٍ ، وما يجدهُ من دلالات متشابكةٍ تحاكي واقع ما تحملهُ هذه الظواهر من رموز وحركةٍ وثباتٍ وأفولٍ من جهةٍ ثانيةٍ ، إذْ أصبحتْ رافداً ثراً استلهم أبو الفتح البُستي منه الصورة الشعرية المؤثرة والمكثفة للتعبير عن الأغراض والمقاصد التي تجول في وجدانهِ وخاطرهِ .

Abstract

The still life in the poetry of Abu Al-Fath Al-Busti is one of the most important stylistic features and characteristics that distinguished this Abbasid poet, as his poems were colored with dozens of words denoting astronomy and stars. The reality of what these phenomena carry of symbols, movement, stability and decline on the other hand, as they became a rich tributary, from which Abu Al-Fath Al-Busti was inspired by the influential and intense poetic image to express the purposes and purposes that roam in his conscience and his mind.

الكلمات المفتاحية : البُستي ، شعر ، الطبيعة الصامتة .

المقدمة :

لا مناص من القول أن الطبيعة الصامتة لها تأثير كبير في حياة الشاعر عموماً وأبي الفتح البستي صوصاً ، إذْ كانت السماء وما تنطوي عليه من فلكٍ وأجرامٍ سماويةٍ هي مصدر إلهام للشاعر العربي ولشاعرنا البُستي ، إذ كونت بحضورها في نص البستي مادة جديرة بالدرس ، بم تضمنتهُ من مظاهر وظواهر تكوّن مادة إبداعه ومصدر عطائه .

إذ مزج أبو الفتح البُستي بين مكونات الطبيعة من جهة ، وما يجدهُ من دلالات متشابهة تحاكي واقع ما تحملهُ هذه الظواهر من دلالات ورموز ومعانٍ وحركة وثبات وظهور وافول وتغير أشكال واختلاف بما ينسجم مع واقع الحال والتجربة التي يمر بها والتي يريد إيصالها للقارئ بأوجز تعبير وأبلغ تصوير .

فقد تنوعت رؤية البستي للفلك والأجرام السماوية بحسب موقعها في النفس ،وأضفى عليها ما يختلج في صدرهِ ،وما يختزنهُ عقلهُ من رأي وتفكير عنها انطلاقا من الرأي السائد بأن: الفلك والظواهر الكونية تملك الفاعلية المباشرة للتأثير في الأشياء ، وتغير مساراتها ومصائرها (الغانمي ، ٢٠١٥م ، ص٥١-٥٢) .

إذ تظهر لديه ملكة الخيال جامحة لخلق صورة إبداعية منسجمة مع الطبيعة الصامتة الموحية مولدة بذلك جملةً من الرؤى والدلالات الجمالية والعاطفية والفكرية والنفسية ، والتي تخلق بدرورها نسقاً ومتناً شعرياً مؤثراً .

وبناءً عليه فقد قُسم البحث على ما يأتي :

أولا : الألفاظ : وقد عمدنا فيه إلى ألفاظ الفلك والأجرام السماويّة التي وردت عند أبي الفتح البُستي معتمداً على الأُسلوبية الإحصائية في ذلك .

ثانياً : الدراسة الموضوعية : وتناولنا فيه أهم الأغراض التي انساقتْ فيها ألفاظ الفلك والنجوم والدلالات التي أوحت إليها .

أولاً : الألفاظ :

فقد تنوعت ألفاظ الفلك والأجرام السماوية في شعر البُستي ، إذ جاءت على ثلاثة أشكال وبنسبٍ متباينة ، وهي كالآتي :

١-الألفاظ العامة للفلكيات :

ت	اللفظة	عدد مرات ورود اللفظة
١-	الفلك	١٢
٢-	البرج	٩
٣-	النجم	٧
٤-	الكوكب	٦
٥-	الجُرم	١
المجموع الكلي : ٣٥		

٢- ألفاظ الأجرام السماوية (الكواكب والنجوم والأبراج) :

ت	اللفظ	عدد مرات ورود اللفظة
١-	الشمس	١٩
٢-	القمر	٨
٣-	البدر	٨
٤-	المشتري	٥
٥-	المريخ	٤
٦-	زُحل	٤
٧-	الحوت	٤
٨-	عُطارد	٣
٩-	الحمل	٣
١٠-	الثور	٢
١١-	الفرقدان	٢
١٢-	الجوزاء	١
١٣-	التنين	١
١٤-	الميزان	١
١٥-	الهلال	١
المجموع الكلي		٦٦

٣- الظواهر الفلكية :

ت	اللفظ	عدد مرات ورود اللفظة
١-	الكسوف	٥
٢-	الخسوف	٣
المجموع الكلي		٨

والمجموع الكلي لكل الألفاظ في كل الحقول = ١٠٩ لفظةً

ومن ثمّ فإنَّ هذا الكم الكبير من الألفاظ الواردة في الجداول أعلاه كوّنَ تواتراً في شعر أبي الفتح البُستي وشكَّلَ ظاهرةً لافتةً ومثيراً أُسلوبياً افادَ منهُ الشاعر كثيراً في سياقهِ الإبداعي .

ثانياً :الدراسة الموضوعية :

لقد تنوعت الأغراض الشعرية التي جاءت فيها الفاظ الفلك والأجرام السماوية ، وقد جاءت وبحسب نسبة الورود والتواتر على الشكل الآتي :

أ-المديح : من أكثر الأغراض التي انساقت فيها ألفاظ الفلك والأجرام السماوية هو غرض المديح ،إذ إنَّ الشاعر حاول جاهداً أن يوظف هذه الألفاظ لما وجد فيها من أبعاد دلالية وجمالية موحية ومؤثرة في الخطاب الشعري والمتلقي ، فنراهُ يقول في مدح أحد الولاة (البُستي ، ١٩٨٩م ، ص٣٣):

كالشَّمسِ نوراً ولكنْ ما لهُ لهَبُ كالغيثِ جُوداً ولكنْ وبْلُهُ الذّهبُ

أفعالُهُ غُـــررٌ أقوالُهُ سُـــوَرٌ أقلامُهُ قُضُـــبٌ آراؤهُ شُـــهُبُ

نلاحظ الشاعر في النص عمد الى دال الشمس ؛ بوصفها مصدراً للعطاء والنور والضياء وهي بذلك قرينة للممدوح ، لأنَّهُ يملك الصفات نفسها ، ونلاحظ أنَّ الصورة كانت جوهر العملية الشعرية وكيانها (الصائغ ، ١٩٨٧م ،ص٢٣) .

ومنهُ يقولُ (البُستي ، مصدر سابق ، ص٦١):

وأنختُ في حزنٍ ركائبَ صُحبتي والصارخُ الملهوفُ خيرُ صريخِ

يامَن تولّى المُشـــــتري تدبيرهُ ! حاشاكَ أن تنقـــــادَ للمرّيـــــخِ

المُشتري هو رمز السعد عند العرب ، أمَّا المريخ فهو رمز النحس الأكبر، إذ حاول شاعرُنا أبو الفتح البُستي أن يفيد من هذه المزية في تعزيز سلطة الدلالة في هذا الخطاب وبيان المقصود .

ويقول مادحاً الخليفة (البُستي ، مصدر سابق ، ص٨٧):

مِن وجههِ ، يطلعُ نجمُ المُشتري ياقوتُهُ يُثمِرُ شهداً ، فأشترِ

وتستمر الاستعانة برمز السَّعد ؛لأنهُ الأنجعال في رأي الشاعر في توصيل المعنى مع التأثير في بنية السياق الشعري .إذْ إنَّ الشاعرَ عبرَ من خلال أبياتهِ عن طريقة التفكير الجمعي أتجاه الكواكب ، حيث ينظرُ الناس إليها بأنَّها سببٌ من أسباب السعادةِ أو الحُزنِ (الهرَّامة ، ١٩٩٦م ، ص٦٤).

وقولُهُ مادحاً الخليفة (البُستي ، مصدر سابق ، ص٢٣-٢٤) :

إذا دهى خطبٌ فآراؤهُ تُغني عن الجيشِ وتســـــريبهِ

وإن دجا ليلٌ، بدا نورُهُ للرَّكبِ نجماً ، فهي تسري بهِ

فالخليفةُ هو الهادي للجيش في ساحات المعركة فهو النجم الي يُستضاءُ به ،فهو رمز العطاء والنور .نلاحظ إفادة أبي الفتح البُستي من معجمِ الفلكِ ، لما لهُ من لغةٍ حيَّةٍ ثرَّةٍ تحملُ شحنةً خياليَّةً عاليةً ومؤثرةً .

ومنهُ –أيضاً-(البُستي ، مصدر سابق ، ص٢٧٦) :

ولو كنتُ أنثُرُ ما تستحِقُّ نثَرتُ عليكَ نُجومَ الفَلَكِ

النجوم في النص رمزُ الألقِ والبهجةِ والنورِ والسرورِ والسمو، فهذا الرمز جديرٌ بالنثر فوقَ الأمير ، فالقارئ يجدُ أنَّ سياقات الشاعر تحولتْ إلى تكوينات جمالية تستحضرُ فيها لغةَ الإبداعِ الهيْأة الحسيّة أو الشعورية للأجسامِ أو المعاني بصياغةٍ جديدةٍ (الصائغ ، مصدر سابق ،ص١٥٩).

وقولُهُ –أيضاً- مادحاً نظم أحدهم وكتابته (البُستي ، مصدر سابق ، ص٥٦):

فديتُك ، يا محمَّد ، من كريمٍ هنيءٍ صرفُهُ ، عذبُ المِزاجِ

لهُ في النَّظمِ ، منهاجٌ بديعٌ وليس، لذلك المنهاجِ هـــــاجِ

معانيهِ بروجٌ ليس تُرقى ، وهلْ يَرقى ، إلى الأبراجِ راجِ ! ؟

حتى في مدح المعاني يعمد الشاعر إلى جعلها بروجاً عاليةً لا يرتقي إليها أحدٌ ، بوصفها رمزاً للعلو والارتفاع والوضوح والتميّز .

وقولُهُ في ركن المعالي (البُستي ، مصدر سابق ، ص٦٥) :

رُكنِ المعالي ، قِبلةِ المحامدِ ، وشحَّهُ بكُلّ لفظٍ فـــــارِدِ

وكلُّ معنىً ، للهمومِ طاردِ كأنَّما استملاهُ من عُطاردِ

وتبقى الألفاظ والمعاني المختارة من قبل شاعرنا لرُكن المعالي متميزة وذات خصوصية ومتفردة ، وتبعث على الأمل وطاردة للهموم ، وقد جاء عُطارد-هنا -بوصفهِ رمزاً للبهجة والسرور.

ويقول في مدح الخليفة (البُستي ، مصدر سابق ، ص٢٧) :

وإنّي لمُحتاجٌ إلى سيدٍ لهُ سماحٌ، ورأيٌ ، لا تغيبُ كواكبُهْ

فيكشفُ ايامَ الجدوبِ سماحُهُ وتفتُقُ أكمامَ الغُيُوبِ تجاربُهْ

يلاحظ القارئ أنَّ الشاعرَ أبا الفتح البُستي قد جعل ألفاظ الكواكب في هذا النص الشعري مصدراً من مصادر العطاءِ والنورِ، فالصورة عند شاعرنا البُستي هي وسيلتهُ في التعبير عما يجولُ في خاطِرهِ ، ويعمدُ إليها قاصداً استجابةَ الحواسّ عند جمهور القُرَّاءِ(الهرَّامة ، مصدر سابق ، ص٩١) .

ومنهُ في مدح الخليفة –أيضاً-(البُستي ، مصدر سابق ، ص٢٩) :

رُبَّ شعرٍ لمَّا مدحتُكَ فيهِ سارَ في العالمينَ ، بُعداً وقُربا

فكأنّي أودعتُهُ فَلكَ الشمـــــــــسِ فعمَّ البلادَ شرقاً وغربـــا

الملاحظ أنَّ الشمس جاءتْ بوصفها رمزاً للضياءِ في هذا النص ، وكانت معادلاً موضوعياً للممدوح إذ أشارتْ للسمو والرفعة والضياء .والملاحظ أنَّ الصورَ الفلكيَّة التي أودعها شاعِرنا في بنيتهِ الإبداعيةِ قد غلبتْ عليها المبالغةُ ، قاصداً التأثير في الممدوحِ وجمهور المتلقين .

ب-الفخر: لقد استعان أبو الفتح البُستي بشكلٍ لافتٍ في غرض الفخر بدوال الفلك والأجرام السماوية، حتى غدتْ سمةً بارزةً في شعرهِ ،

إذ يقول مفتخراً بنفسهِ (البُستي ، مصدر سابق ، ص٩٤) :

لئِنْ تنقـــــــلتُ ، من دارٍ إلى دارٍ وصِرتُ بعدَ ثواءٍ رَهنَ أسفـــــارِ

فالحُرُّ حُرٌّ عزيزُ النَّفسِ حيثُ ثَوى والشَّمسُ في كُلّ بُرجٍ ، ذاتُ أنوارِ

يفتخرا لشاعر كثيراً بنفسهِ ، حيث يقول إنّ تنقلهُ بين دار ودار لا يؤثر في شخصيتهِ ومكانتهِ الاجتماعية ، بل يبقى شامخاً حُراً ، حالُهُ كحال الشمس التي تنتقل بين الأبراج لكنَّها مضيئةٌ ومشرقةٌ ، فالشاعر يستدعي الصور البصرية دائماً ، لأنَّها من أدقّ الحواسّ ، ومن أكثرها تأثراً في الواقعِ (الهرَّامة ، مصدر سابق ، ص٩١) .

ومنهُ –أيضاً-(البُستي ، مصدر سابق ، ص١٧) :

أو خيَّلُوا لكَ أنَّ عهدي أبتـــــــرٌ فالحُرُّ لا يرضى بعهدٍ أبتـــــرِ

طبعي كطبعِ المُشتري ما فيهِ من شَرٍّ ، فهلْ من مُشترٍ للمُشتري؟

يلاحظ أن الشاعر يفتخر بنفسهِ بأنَّه صاحبُ كلمةٍ وعهدٍ ، ولا ينقضُ العهد أبداً، وأنَّ طبعهُ مماثلٌ لطبعِ المُشتري في الدلالةِ على الخيرِ والعطاءِ ، فالفلك –كما يبدو جلياً- عند البُستي يمثلُ عنصراً من عناصر الإيحاء والتأثر بسببِ الدلالةِ التي يولدُها في النصّ، وهذا-بالطبعِ- مصداقٌ لقولِ أحدِ النقادِ بـ(أنَّ للألفاظِ أرواحاً ، ووظيفة التعبير الجيّد أنْ يُطلقَ هذهِ الأرواح في جوّها الملائم لطبيعتها فتستطيع الإيحاءَ الكامِلَ)(العريض ، ١٩٧٤م ، ص١٢) .

ويقول بعد حبسهِ مفتخراً (البُستي ، مصدر سابق ، ص١٠٥):

فديتُكَ يا روحَ المكارمِ كُلِّها ! بأنفسِ ما عندي من الرُّوحِ والنَّفسِ

حُبِستُ ومن بعد الكُسوفِ تبلُّجٌ تُضيءُ بهِ الآفاقُ للبدرِ والشَّمـــــسِ

ظهر لنا الكسوفُ في هذا النص بوصفهِ رمزاً للشاعر ومعادلاً موضوعياً للذات ومعاناتها في هذه الحياةِ ،إذْ إنَّ اختفاءه المشابهُ للكسوفِ هو اختفاء واحتجابٌ مؤقتٌ ، ومن بعدهِ سينطلقُ النورُ والضوءُ الأبديُّ الذي يغمرُ الكون ، وقدْ عمدَ الشاعِرُ إلى هذهِ الألفاظِ ، لأنَّها توقِظُ في النَّفسِ المستقبلةِ مجموعةً من المشاعِرِ والأحاسيس الموجبةِ .

و يقولُ –أيضاً- (البُستي ، مصدر سابق ، ص٢٥٨) :

لئِن كسَفونا بلا علَّةٍ وفازتْ قِداحُهُم بالظَّفَـــــــرْ

فقد يكسِفُ مَنْ دونَهُ كما يكسِفُ الشَّمسَ جُرمُ القَمَرْ

ويستمرُ مصطلحُ الكُسوفِ بوصفهِ باعثاً إبداعياً عند البُستي ، ليظهر من خلالهِ خلجاتهِ ومكنوناتهِ الداخلية ، وبأنَّ الكسوف ليس ضعفاً أو انهزاماً بل حالة عابرة لا تؤثر في هيبة ومكانة البُستي ، وأنَّ الشمس تنكسف لكنَّها عالية متوهجة في كبد السماء .

ج- الغزل : أخذ الغزل حيزاً من الألفاظ الكونية ، حيث يقولُ متغزلاً (البُستي ، مصدر سابق ، ص ١٣٥):

أيُّها البدْرُ الَّذي يجلو الدُّجـــا إنَّ رُوحي في هواكمْ تَحـــــــترقْ

أنا من جُملةِ أحرارِ الـورى غيرَ أنِّي في هواكُمْ تحـــــتَ رِقْ

تألقَ الشاعرُ كثيراً في استدعاء الألفاظ الكونية ، بوصفها مصدراً ثراً من مصادر الجمالِ والمتعةِ ، فهو يقفُ في هذا النص متغزلاً بمحبوبتهِ ، واصفاً إياها بالبدرِ جمالاً وجاذبيةً .
ويقولُ -أيضاً- (البُستي ، مصدر سابق ، ص٤٠):

لقد رَاعَني بدرُ السَّما بصـــــدُودهِ ووكَّلَ أجفـــــاني برَعْي كواكـــبِهِ

فيا مُهجتي ! لا تَجْزَعي من جفائِهِ و يَا كَبدِي ! صبراً على ما كـواكِ بهِ

ويرجع مرةً أُخرى ليمثل محبوبتهُ ببدرِ السماءِ علواً وتميزاً وسحراً .والقمرُ عندما يصبحُ بدراً يمثلُ قمةَ اكتمالِ النور والضياء ،وهذهِ الصورِ تخرجُ مشحونةً بالعاطفةِ والإحساسِ(لويس ، ١٩٨٢م ، ص٢٣) ، فضلاً عن النغم الهادرِ المنبعثِ من موسيقى الجناس (كواكبه ، كواك به) . ومنهُ يقولُ (البُستي ، مصدر سابق ،ص١٤٥) :

يا قمراً في الفُــؤادِ حـــــلَّا ! دمي حَـــرامٌ فكيفَ حـــــــلَّا ؟

عليَّ سيفَ الصُّدودِ سَـــــلَّا والقلبُ مِنهُ للوصـــــلِ سَـــــلَّا

نلاحظ أنَّ القمرَ جاء علامةً من علامات الجمال والألقِ ، فشاعِرُنا يمثل معشوقتهُ بالقمرِ بياضاً وإشعاعاً ، وهنا سيادةٌ مطلقةٌ للخيالِ الجامحِ عند الشاعرِ في بثِّ الصورِ والألوانِ والأشكالِ .

ومنهُ قَوْلُهُ (البُستي ، مصدر سابق ،ص٢١٠):

قمــرٌ يقمُرُ العُقُولَ بسحرٍ ما لَهُ مـــــــركزٌ سِوى عَيْنـــــيهِ

فالشاعر يُكثر من دال القمر، لأنهُ أيقونة الضياءِ والحُبِّ ، و يستعين أديبنا البُستي بهذه الدوال والألفاظ ،لأنَّهُ يعي جيداً ما للفلك من تأثير في بنيةِ النصِّ الإبداعيّ من تأثيرٍ في المتلقي والجمهورِ .

ومنهُ –أيضاً-(البُستي ، مصدر سابق ،ص١٤٣) :

شوقي إليكَ ربيعُ القَلبِ مُلبِسُهُ وشْيَ السُّــرورِ بأنـوارٍ من الحُـــــللِ

فإن أردتَ لهُ مثلاً يُشابِهُـــهُ فانظُرْ إلى حُسنِ فِعلِ الشَّمسِ في الحَمَلِ

وهنا في هذا النص يندفع الشاعر ليمثلها بالشمس إشعاعاً وانتشاراً ، فالصورة البصرية –هنا- محاكاة للطبيعة وجمالها ونورها .ونجدُ في هذا النصِّ تفاعلاً بين الفكرةِ والرؤيةِ والحواسِّ ، إذ يستعين المبدعُ بلغةٍ شعريةٍ مستندةٍ إلى طاقةِ اللغةِ الانفعالية بتشبيهاتها واستعارتها ، لأجلِ خلقِ الاستجابة والتأثير في جمهور السامعين والقُراءِ (غزوان ، ١٩٩٤م ، ص١١٩) .

ولهُ -أيضاً-(البُستي ، مصدر سابق ،ص١٤٩):

يا غزالاً بوجههِ جُـــــدريٌّ ظلَّ يَحكـــي كواكـــباً في هلالِ

لا تلُمْني إنْ نَمَّ بالسِّرِّ دَمعي فَلهُ الذَّنبُ خالصاً منـــــهُ لا لي

يشبه محبوبتهُ بالهلالِ المتوهجِ جمالاً وروعة وضياءً ، ويصل العشقُ إلى حدِّ البكاءِ من ألمِ الفراقِ ، ويتضحُ جلياً هيمنةُ مصطلحات الفلكِ والأجرامِ السماويَّةِ على البنيةِ البيانيّة لصورِ أبي الفتحِ البُستيّ، مع الموسيقى الموحية والمؤثرة من بنية الجناس (هلال ، هـ لا لي) والتي تكثِّفُ اللحظة الشعوريّة عند البُستي .

د-الحكمة : نالتْ الحكمة نصيباً من ألفاظ النجوم والكواكب والأبراج ، إذ يقول ناصحاً ومحذِّراً من سطوةِ الملوكِ وتقلبِ مَزاجَهُم (البُستي ، مصدر سابق ،ص٦٧):

سَلِ اللهَ الغَنيّ تَسألْ جـــــوادا أَمِنت على خزائنهِ النَّفادا

وإن أصفاكَ سُلطانٌ بقـــربٍ فلا تُغْفِلْ تَرقُّبكَ البِعـــادا

فقدْ تُدني المُلوكُ لدى رضاها وتُبعدُ حينَ تحتقِدُ احتِقادا

كمَا المَرّيخُ بالتَّثليثِ يُعطي وبالتَّربيعِ يَسلُبُ ما أفادا

يُحذر الشاعر-هنا- الجمهور من أنَّ الاقتراب من السلطان ليس مدعاةً للأمان ، لأنَّ الملوك والسلاطين لا أمان لهم ، يقربوكَ اليوم ، ويبعدوكَ غداً ، وهذه الحكمة عضدها الشاعر بدال المريخ ، وهو رمز التشاؤم والنحس ، حيث إنَّ المريخ في البُعد الثالث للمجرةِ يُعطي بريقاً ولمعاناً ، ولكنَّهُ في البُعد الرابع يأخذ ما أعطى من الضوء ، ويصبح الكون أشدُّ ظلمةً .فيسلب ما أعطى .وقدْ افاد الشاعرُ كثيراً من هذهِ الرموزِ المؤثرةِ والمتجذرةِ في وجدانِ العربِ عموماً .

ويقولُ –أيضاً-(البُستي ، مصدر سابق ،ص٢٥٠) :

لا تُعوّلْ على شخصٍ عُمُـــــرٌ وصورةٌ ذاتُ حُسْنٍ تَبهرُ القَمَرا

فكمْ فتىً ! راقَ مِنهُ ظاهرٌ حَسَنٌ وكانَ باطِنُهُ ضِدَّ الذي ظَهَـــرا

فالشاعر ُينبّه في هذا النص إلى أنَّنا يجب أنْ لا نغترّ كثيراً بالأشكال ، فإنَّ الأشكال خدَّاعةٌ ، ويجب أن نعتمد على الأفعال والأقوال قبل المظاهر ، لانَّ أغلبها مُزيف مبهرج لا قيمةَ لهُ .فالأخلاق هي معيار التفاضل بين الناس .فالشاعر يعتمدُ على الألفاظِ التي تستجلي المعاني المُتخيَّلةِ .

ومنهُ (البُستي ، مصدر سابق ،ص٢٧٤):

ألا أبلِغ السُلطانَ عنّي نصيحـــــةً يُشيعُها ودٌّ ورأيٌ مُحنـــــكٌ

تَجاوزتَ أوجَ الشَّمسِ عِزّاً ورفعةً وذلَّلْتَ قَسراً كُلَّ مَنْ قدْ تملَّكوا

فمَا حركاتٌ مُتعباتٌ تُديمُـــها ؟ تَأنَّ فأوْجُ الشَّمـــسِ لا يتحرَّكُ

يدعو الشاعر إلى التأني في الحياةِ والرويةِ في اتخاذ القرارات ، لكي لا يكونَ ندمُ في المستقبل في اتخاذ القرارات لاسيّما في المسائل المصيرية ، وخاصةً مسائل الحرب ، وعليه أنْ يثبت كثباتِ الشمس مع قمةِ عطائها اللامتناهي ، وهذهِ المفرداتُ الفلكيَّةُ تبعثُ في النَّفسِ الايحاءات .

وقوْلُهُ ناصحاً الكُتَّاب(البُستي ، مصدر سابق ،ص٢٧٨) :

يا معشرَ الكُتَّابِ ! لا تتعرضوا لِرياسةٍ وتصاغَروا وتخادَمُوا

إنَّ الكواكِبَ كُنَّ في أشرافِـها إلاَّ عُطـــارِدَ حينَ صُوِّرَ آدَمُ

يطلب شاعرُنا من الكتَّاب عند العمل في هذه الصنعةِ إلى التواضع والتصاغر فيما بينهم ،وعدم التعرض من نقد و هجاء للأُمراء والملوكِ والولاةِ ، وينصحهم بعدم المساس بهم أبداً ، فهذه الحِكم هي من تجعل نجم الكُتَّاب عالياً ناصعاً .فالشاعرُ-كما-نلاحظ استعانَ بالبيت الأول بالألفاظ التي تدعو للهداية الذهنيةِ ، أمَّا في البيت الثاني فقد عمد إلى الصورة البصرية ، قاصداً الهدايةَ الحسّيّة (مطلوب ، ١٩٨٠م ، ص ٤٨) .

ويقولُ (البُستي ، مصدر سابق ،ص٢٥٢):

لا تَفزَعَنْ من كُلِّ شيءٍ مُفزِعٍ ما كُلُّ تَدبيرِ البُروجِ بِضائرِ

يلاحظ القارئ أنَّ البُستي يأمر عامة الناس أنْ لا يفزعوا من كل شيء عليه علامات الفزع ، أي يدعو أن يتحلى الانسان بالشجاعة والثبات ، ويقول أنهُ ليس كل حركات الأقمار والنجوم ، وتنجيم المنجمين متحققٌ ضارٌ ، قد تكون حركات كونية طبيعية تجري ضمن السياق الحركي للفلك .

وينصحُ أحدَ الولاةِ المغرورين قائلاً (البُستي ، مصدر سابق ،ص٢٤) :

قُل لِلذي غَرَّتْهُ عِزَّةُ مُلْـــــكِهِ حتى أخلَّ بِطاعةِ النُّصـــــحاءِ

شرفُ المُلُوكِ بِعِلمِهم وبرأيهم وكذاكَ أوجُ الشّمسِ في الجَوزاءِ

يأمر الشاعر الملوك بعد الأغترار بالمُلك ، وعليهم أنْ يأخذوا بنصيحة النُصحاءِ والحُكماءِ ، وأنْ يتحلوا بالحكمةِ والرأي السديد والعلم ، فهذهِ مقومات السلطةِ والحُكْمِ .وقد عمدَ إلى الصورِ الفلكيَّةِ لأنَّها حسيَّةٌ ، وقادرةٌ على تصويرِ المشاعرِ الانسانية (الرباعي ،١٩٨٠م، ص١٤٦) .

هـ -الهجاء: لقد عمدَ الشاعرُ إلى دوالِ الكونيات ، للتعبيرِ عن مشاعرهِ وخلجاتهِ في موضوعة الهجاءِ والذّمِ ،إذْ يقولُ في هجاءِ أبي البَغلِ (البُستي ، مصدر سابق ،ص٨٩) :

ابنُ أبي البَغلِ عدولٌ عنِ الـــ ـــعَدلِ إلى الباطِلِ والجَوْرِ

ولو غدا العقلُ نصيحاً لـــــهُ وصانَهُ مِنْ وَصمَةِ الخوْرِ

تَصيَّرَ الفِعْلُ لربِّ الـــوَرى ومُبدعُ الأفلاكِ والـــدَّورِ

لكـــــنَّهُ ثَـــوْرٌ فمِنْ ذاكَ ما يَجْعَلْـــــهُ للـحُوتِ والثوْرِ

يتناول الشاعر –هنا- المهجو أبا البغل مستعيناً بالأبراج ، لاسيّما برج الثور، إذْ يُطلق لفظة (الثور) على أبي البغلِ كنايةً على عدمِ الفِهمِ والغباءِ وقلةِ القَدْرِ .

ومنهُ يقولُ –أيضاً- (البُستي ، مصدر سابق ،ص٨٨):

لَو كانَ هذا الأمرُ عنْ سائسٍ ميَّـــزَ بينَ الـــعَدلِ والـــجَورِ

لكـــنَّهُ عن فلَكٍ أَحـــــمَقٍ يُسوسُنا بالحُوتِ والثَّـــــوْرِ

ويستمر البُستي باستعمال برج الثور دلالةً على عدم الفهم وقلة القدرِ ، ويوغل في قذع المهجو ويجعل الحُمقِ صفةً من صفاتهِ .

وقَوْلُهُ (البُستي ، مصدر سابق ،ص٢٨٦):

شرفَ الوَغدِ بوَغدٍ مِثلَهُ مَثَلٌ ما فيهِ زَيغٌ وخَلَـــــلْ

ودليلُ الصِّدقِ فيما قُلْتُهُ شَرَفَ المرّيخِ في بيتِ زُحَلْ

وعندما يواجه الشاعر مهجوين اثنين لا يجدُ بُداً من الاستعانة برمزين من رموز التشاؤم والشر وهما زحل والمريخ . لأن المبدع يرى فيهما خيرَ عونٍ في توصيل المعنى والتأثير في المتلقي من اظهار الخسة والتعاسة .

ويقولُ ساخطاً وهاجياً للدهرِ وأفعالهِ (البُستي ، مصدر سابق ،ص١٥٣):

لا تَعجبَنَّ لدَهرٍ ظلَّ في صببٍ أَشرافُهُ وعَلا في أوجهِ السَّـــفِلُ

وانقَــدْ لأحكامِهِ أنَّى يُقادُ بها فالمُشتري السَّعدُ عالٍ فوْقَهُ زُحَلُ

يقول شاعِرُنا لا تعجبْ من علو السِفلةِ على الأشراف ، فزُحل الشر يعلو على رمز الخير المُشتري ، ولكن تبقى المقامات محفوظة لكليهما .

ويقولُ (البُستي ، مصدر سابق ،ص٢٥):

أَخٌ لي جربتُهُ مــــــرَّةً فنَــــدَّمَني طُولُ تَــــجريبِهِ

فهلْ كانَ يُربِحُ تجريبُـهُ وفُلكُ التَّكبُّــــرُ تَجْــــري بهِ

ويهجو أحد الولاة بقولهِ(٤١) :

قد غَضَّ من أملي أنّي أرى عملي أقوى من المُشتري في أوَّلِ الحَمَلِ

وأنَّني راحلٌ عما أُحــــــــــاوِلُهُ كأنَّني أستَدرُ الحظَّ مِنْ زُحَــــــلِ

يلاحظ القارئ أنَّ الشاعر يملك من العزيمة والمهابةِ والأمل الشيء الكثير ، كأنَّهُ المشتري في بداية انطلاقتهِ ، ومع ما يملك فهو محبطٌ مهزومٌ من الداخل ،لأنهُ سيذهب إلى شخصٍ على الولايةِ بخيلٍ ، وهو بذلك كأنّهُ يستدر الحظ من زُحل السيء صاحب رمزية الشؤم .

و- الرثاء : شاعت في غرض الرثاء تداول ألفاظ الفلكيات ولكنّهُ أقل الأغراض ، حيث يقولُ راثياً أحدُ الولاةِ (البُستي ، مصدر سابق ،ص٢٨٢) :

مَضى الصَّاحِبُ الكافي ولمْ يبقَ بعْدَهُ كريمٌ يروّي الأرضَ فيضُ غَمامِهِ

فَقَــــدناهُ لمَّا تمَّ واعــتَمَّ بالــــعُلا كذاكَ خُسوفُ البَدرِ عِندَ تمـــامِهِ

يرسم لنا المبدع في هذه اللوحة مقطعاً رثائيا مؤثراً ، وذلك برثائهِ أحد الولاة حيث جعلهُ كالغمامة التي تروي الأرض لكرمهِ وجودهِ على الرعية ، ويشبه فقدانهُ بالبدر بعد اكتماله وجمالهِ في الأُفقِ ، إذْ ينسدل فجأةً ويتركُ فراغاً عميقاً في النفوسِ والأذهانِ .

ي- الوصف : لقد ورد في غرض الوصف مثالُ واحدُ يضمُّ ألفاظاً للكواكبِ والأجرام السماوية ،وذلك حينما وصفَ أبو الفتح البُستي الملكة بلقيس

بقوْلِهِ(البُستي ، مصدر سابق ،ص٢٩٦-٢٩٧) :

كَأنَّمــــا النَّيْلوفَرُ الغضُّ إذْ يَبدو لَنـــــا مِنْ مــائِهِ الغَمْــــرِ

وإذْ يُراعي طلعةَ الشَّمسِ كي يَفتــحَ أحــــداقاً مِنَ الـــــتِّبْرِ

بلـقيسُ في صَرْحِ قواريرِها واقــفةٌ في الــحُلــلِ الــــخُضْرِ

تُراقبُ الشَّمسَ ومن دينِــها أنَّ لَهَا الــــخَلْقُ مَعَ الأمــــــرِ

يشبه الشاعر الملكة بلقيس بأنها من جنس الشمس ومن دينها ،من حيث الإطلالة والبهاءِ والرونق والجمال ،بيد أنَّها فاقتْ الشمسَ بأنَّ لها الأمرُ والطاعة ، فجمعت بذلك الجمال والسلطة السياسية المُطلقة .

وفي النهايةِ لا يسعني إلاَّ القولَ أن أبا الفتحِ البُستي قد استعمل اللغة استعمالاً فنياً يدلُّ على مهارتهِ الإبداعية ، ومن ثمَّ جسدَ شاعريتهُ في خلقِ الاستجابة والتأثيرِ في المتلقي ، حتى طبَّق مقولةَ أنَّ الصورةَ هي الوعاءُ الفنيُّ للغةِ الشعريَّةِ شكلاً ومضموناً(كبابة ، ١٩٩٩م ، ص٥٨) .

النتائج :

لاحظنا من خلال ما سبق بأنَّ الفلك كوَّن رافداً ثراً لأبي الفتح البُستي ، إذْ أستلهمَ منهُ الكثيرَ من الصور الشعريةِ ، وفي مختلف الأغراض والمقاصدِ، إذْ وقفَ مادحاً ومفتخراً ومتغزلاً وهاجياً وراثياً...ألخ من الأغراض ،وقد جعل من الأجرام السماوية وصفاتها الحقيقية والأسطورية المحورَ الذي تدورُ عليهِ الصورة الشعرية ، ومما تجدرُ الإشارة إليهِ أنَّ ألفاظ الفلك والأجرام السماويّة قد أخذتْ معانٍ رمزية في ذهن الشاعر ، إذْ وردتْ عموماً بالانطباعات الآتية :

١-/وردتْ الشمس بوصفها معادلاً موضوعياً لشخصية الشاعر في مجمل الديوانِ ، إذْ دلَّتْ فضلاً عن أيقونة الجمال ، أنَّها رمزٌ للهيبةِ والعلو والعطاءِ .

٢-/ظاهر خسوف القمر متلازمة الحزن في ذهن الشاعر .

٣-/يمثل زُحل والمريخ رمزي الشؤم والنحس الدائم عند البُستي .

٤-/يشكِّلُ كسوفُ الشَّمسِ رمزاً دائماً للمعاناةِ والقلقِ عند الأديبِ .

٤-/يرى الشاعرُ في القمرِ والبدرِ متلازمينِ للجمال والضياءِ ومحوراً فاعلاً للغزلِ

٥-/تأتي الكواكبُ رمزاً دائماً للعلوِ والألقِ عندَ أبي الفتحِ البستي .

٦-/يمثلُ بُرجُ الثَّورِ معادلاً موضوعياً للغباءِ وقِلَّةِ القَدْرِ .

وهذه هي أهم النتائج التي توصلت لها هذه الدراسة .

المصادر والمراجع :

١-البُستيّ ، أبو الفتح ، (١٩٨٩م) ، ديوان شعر ، تحقيق الأستاذين : دريَّة الخطيب و لُطفي الصقَّال ، (د. ط) ، سوريا ، دمشق ، مطبوعات مجمع اللغة العربية.

٢- الرباعي ، عبد القادر ، (١٩٨٠م) ، الصورة الفنية في شعر ابي تمام ، ، ط١، الأردن .

٣- الصائغ ، د. عبد الإله ، (١٩٨٧م) ، الصورة الفنيَّة معياراً نقدياً ، ، ط١، العراق ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية العامَّة .

٤-العريض ، إبراهيم ، (١٩٧٤م) ، نظرات جديدة في الفن الشعري ، ط٢ ، الكويت ، مطبعة دولة الكويت .

٥-الغانمي ، سعيد ، (٢٠١٥م) ، فاعليَّة الخيال الأدبي ، ط١ ، لبنان ، بيروت ، منشورات دار الجمل .

٦-غزوان ، د .عناد ، (١٩٩٤م) ، مستقبل الشعر وقضايا نقدية ، ط١ ، العراق ، بغداد ، دار الشؤون الثقافية .

٧- كبابة ، وحيد صبحي ، (١٩٩٩م) ، الصورة الفنية في شعر الطائيين بين الانفعال والحس ، (د. ط) ، سوريا ، دمشق ، مطبعة اتحاد الكتَّاب العرب .

٨-لويس ، سي دي ، (١٩٨٢م) ، الصورة الشعرية ، تر: أحمد نصيف الجنابي وآخرون ، مراجعة : د. عناد غزوان ، العراق ، بغداد ، مؤسسة الخليج للطباعةِ والنشرِ.

٩-مطلوب ، د. أحمد ، (١٩٨٠م) ، قضايا بلاغية ونقدية ، العراق ، بغداد ، دار الحرية للطباعة .

١٠- الهرَّامة ، د. عبد الحميد عبد الله ، (١٩٩٦م) ، القصيدة الأندلسيّة خلال القرن الثامن الهجري ، (د. ط) ، تونس .